التبشير في منطقة الإمارات: الخدمة الطبية كوسيلة للتبشير (١٩٠٠ ـ ١٩٤٩)

فاطمة الصايغ *

* حصلت على الدكتوراه في التاريخ من جامعة اسكس كولشستر ـ انجلترا عام ١٩٨٩م .
تعمل مدرسة بقسم التاريخ ـ جامعة الإمارات العربية المتحدة .

الملخص

شهدت منطقة الإمارات منذ بداية القرن العشرين توافد عدد كبير من المبشرين الذين اعتبروا الإمارات حقلاً بكراً من حقول التنصير ، وقد استغل المبشرون حاجة المنطقة الماسة للخدمات الطبية الحديثة واتخذوا ذلك ستاراً يُخفي أهدافهم الحقيقية ، كان للمبشرين أهداف ظاهرية وأخرى حقيقية ، فبينما كان التنصير هو الهدف الحقيقي لهؤلاء المبشرين ، كان التطبيب وتقديم الخدمات الطبية بكافة أنواعها الستار الخفي الذي تخفّى وراءه هؤلاء المبشرون ، وقد استغل المبشرون حاجة المنطقة الماسة للخدمات الطبية الحديثة واعتبروا تلك الحاجة ورقة ضغط في أيديهم للتغلغل الديني في المنطقة ، حيث كان شعارهم «لا سماع للصلوات الدينية ، لا علاج» ، ومما ساعد المبشرين على التغلغل في المنطقة الأوضاع الصحية وظروف الفقر والتخلف والجهل .

كان معظم المبشرين الذين توافدوا على منطقة الإمارات أطباء مؤهلين ، حملوا على عاتقهم تأدية مهنتين في آن واحد : العلاج الطبي والتبشير ، وقد كان موقف أهل الإمارات من هؤلاء المبشرين موقفًا مثيراً للجدل ، فهم من ناحية رحبوا بهؤلاء الأطباء وتقبلوا خدماتهم الطبية التي لاقت نجاحاً منقطع النظير ، ومن ناحية أخرى أعرضوا عن دعوتهم الدينية ورفضوها رفضاً تاماً.

ظل المبشرون يقومون بأعمالهم تحت ستار الخدمات الطبية حتى عام ١٩٤٩ عندما بدأت الإمارات في إنشاء الخدمات الطبية الحديثة ،مستعينة بمعونات بريطانية ،عندها فقدت الخدمات الطبية للمبشرين ذرائعها التي ظلت تعمل تحت ستارها لمدة خمسين عاماً.

١ ـ مقدمة

كثيرة هي الدراسات التي تناولت بالنقد والتحليل محاولات التغلغل السياسي والاقتصادي والاجتماعي الغربي في منطقة الخليج العربي ، ولكن قلة منها تناولت محاولات التغلغل الديني ، ويرجع ذلك لما يلي :-

أولا

حساسية الموضوع لأن منطقة الخليج وشبه الجزيرة العربية ليست موطن الإسلام ، فحسب ، وإنما لارتباطها بالأديان السماوية الأخرى ارتباطًا وثيقاً ،لذلك فقد صمدت هذه المنطقة في وجه جميع محاولات التغلغل الديني الذي تعرّضت له على مرّ العصور .

ثانيا

قلّة المعطيات الوثائقية والأصول التاريخية التي تناولت محاولات التغلغل الديني ، فمعظم الوثائق محفوظة لدى مراكز التبشير في الدول الغربية كالولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وهولندا ، والدنمارك ، وبعض هذه الوثائق لم يكشف عنها النقاب وتفتح مجالاتها إلا مؤخراً مما خلق عقبة كأداء أمام الباحثين عن محاولات التغلغل الديني لهذه القوى الأجنبية ، وهذه الدراسة تستهدف الكشف من محاولات التغلغل الديني والتبشيري الذي قامت به الإرساليات الأجنبية عامة والأمريكية خاصة في النصف الأول من القرن العشرين في منطقة الإمارات ، وقد اتخذت هذه الإرساليات من الخدمات الطبية وسيلة للتغلغل في المنطقة ، ونظراً لحاجة الأهالي للرعاية الطبية الحديثة ، فقد نجحت هذه البعثات الطبية في الوصول إلى أرجاء الإمارات كافة ، بيد أنها فشلت في تحقيق هدفها الأول ، ألا وهو التبشير .

اعتمدت هذه الدراسة على الوثائق البريطانية غير المنشورة المحفوظة في لندن وهي مكتب حكومة الهند (IOL) ، ومكتب الإرسالية العربية في نيو برنزويك

في نيوجرسي بالولايات المتحدة . New Brunswick, N. J ، ومكتبة اللاهوت في جامعة جورج تاون الأمريكية بواشنطن Woodstock Theological Library ، وإضافة إلى الوثائق غير المنشورة فقد استعانت الباحثة بوثائق منشورة تتصل بالموضوع ، وأجرت بعض المقابلات مع مبشرين عملوا في منطقة الخليج وشبه الجزيرة العربية .

أما منهج الدراسة فهو منهج البحث التاريخي ، فقد تم اختيار فترة زمنية تبدأ في العام ١٩٠٠ وهو العام الذي بدأ فيه توافد المبشرين على منطقة الإمارات لمباشرة أعمالهم الطبية التبشيرية ، وتنتهي عام ١٩٤٩ ، الذي شهد إنشاء أول مستشفى حديث بالإمارات ، فأصبحت في غنى عن خدمات المبشرين الطبية .

وقد تم تقسيم البحث إلى خمسة أقسام ، يتناول أولها دراسة أوضاع الإمارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والصحية قبل مجيء البعثات التبشيرية ، ويشمل القسم الثاني الفترة من ١٩٠٠ ـ ١٩١٨ ، حيث تناقش الدوافع الحقيقية لهذه البعثات التبشيرية ونشاطها الأول في المنطقة ، ويشمل القسم الثالث الفترة من ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ ويتناول النشاط التبشيري للإرساليات الأمريكية في الفترة ما بين الحربين ، ويشمل القسم الرابع الفترة من ١٩٣٩ ـ ١٩٤٩ ويعرض لبداية ظهور الخدمة الطبية الحديثة في الإمارات ، أما القسم الخامس والأخير فيتضمن تحليلاً لأهداف البعثات التبشيرية وأسباب فشلها .

وترجع أهمية هذه الدراسة لأنها تتناول فترة زمنية من تاريخ الإمارات ، تعرّضت خلالها المنطقة لمحاولات جادة للتغلغل الديني ، وهي المحاولات التي كانت لا تهدف إلى التنصير فقط ، ولكنها تخفي أيضًا وراءها محاولات للتغلغل في الكيان السياسي والاقتصادي للمنطقة بأكملها ، وقبل أن نبدأ في شرح أوضاع المنطقة في مطلع القرن العشرين سنلقي الضوء على أهم البعثات التبشيرية الأجنبية التي عملت في منطقة الخليج والجزيرة العربية لنتعرف من خلالها على أهدافها والوسائل التي تذرّعت بها .

٢ ـ خلفية تاريخية

شدّت منطقة الخليج وشبه الجزيرة العربية تلك المنطقة الصحراوية المترامية الأطراف ، انتباه الكثير من الغربيين وأغرتهم ليس فقط بمحاولات اكتشافها والتجوّل في أراضيها ، والكتابة عنها ، ولكن أيضًا بمحاولات اجتذابها وضمّها إلى عالمهم ، فقد كان القرن التاسع عشر عصر الرحالة والمستشرقين والمبشّرين ، وقد شبّه السياسي الرحالة برترام توماس المنطقة بأنها كالسيدة الوقور التي تومىء للإنسان بأن يمتنع عنها ، وربما تكون هذه الصفة بالذات هي التي جذبت إليها أنظار المبشرين ، فتوافدوا إليها لارتيادها كمجال جديد من مجالات التبشير ، وكان المبشرون يزعمون بأن هناك مطالب تاريخية للمسيحية في منطقة شبه الجزيرة العربية والشرق الأدنى ، وهم يرون أن هذه المناطق ، كانت في الماضي مسيحية فدخلها الإسلام ، لذلك فإن التبشير في هذه المناطق لا يعتبر بدعة مستجدة ولكن «استعادة» هذه المناطق مرة أخرى لحظيرة المسيحية [١].

وإضافة إلى هذا النمط من المزاعم التاريخية ، هناك أيضًا ادعاء بأن الجزيرة العربية وقفت عبر القرون حائلاً دون انتشار المسيحية في وسط وشرق آسيا، «فتعصّب المسلمين» ووقوفهم في وجه المدّ المسيحي أوقف تقدم انتشار المسيحية في هذه المناطق ، ويزعم المبشرون بأن عليهم مسئولية إنسانية هي رفع الظلم والإجحاف عن النساء والأطفال في المشرق الإسلامي ، فهذه الجموع ، في زعمهم مضطهدة ومحرومة من حقوقها التي شرعها الله وشرعتها الأديان السماوية ، وقد عامل الإسلام هذه الفئة معاملة لا إنسانية ، فحطّ من قدر النساء وسمّم حياة الأطفال ، لهذا يجب على المبشّرين والمبشّرات أن يصلوا إلى النساء والأطفال ويبلغوهم رسالة المسيح لهم .

بالإضافة إلى هذه المزاعم التاريخية والإنسانية يدعي المبشرون بأن الإسلام عاجز عن إشباع الرغبات الروحية والعقلية لأتباعه ، ولهذا يقع على عاتق

المبشّرين تبعة ثقيلة ، وهي تقديم رسالة المسيح بصورة عملية وعقلية تشبع «الرغبات الروحية للمعتنقين الجدد للمسيحية» ،[٢] وأخيرًا فسّر المبشرون تقبّل المسلمين لعناصر المدنية الغربية الحديثة بأنه تقبّل لسائر نواحي الحياة الغربية المادية والمعنوية ، واعتقد المبشرون بأنهم لن يجدوا أي صعوبة أو عقبة في سبيل نشر رسالتهم .

كانت منطقة الخليج والجزيرة العربية تعرف في أوساط المبشّرين بأنها الجزيرة العربية المنسية Neglected Arabia ،صحيح أنها لم تكن قبل عام ١٨٨٥ معروفة لدى أوساط المبشّرين أو مطروحة ضمن مشروعاتهم بصورة دائمة ، ولكن صحيح أيضًا أنها لم تغب عن بال المبشّرين الأوائل منذ أن زارها المبشر الإنجليزي هنري مارتن Henry Martyn في عام ١٨١١ ، ففي طريقه لفارس زار مارتن مسقط وكان شعاره «دعوني أحترق من أجل الله» .[٣] وهكذا بدأت حركة التبشير الحديث في الخليج وشبه الجزيرة ، ويرجع لمارتن الفضل في ترجمة (الإنجيل) أو (العهد الجديد) إلى اللغة العربية بمساعدة شخص آخر يدعى سبت .

تعتبر زيارة مارتن أول زيارة يقوم بها مبشر مسيحي غربي لمنطقة الخليج ، واستهلت بها حركة التبشير المسيحي في المنطقة ، وفي فترة العقدين التاليين ظلّت الجزيرة العربية بتاريخها الطويل وعلاقتها القديمة بالمسيحية تمثّل تحدّيًا للمبشرين ، وقد توافدت إليها بعد ذلك إرساليات تبشيرية إنجليزية ودانماركية وهولندية ، تنافست على المنطقة مستفيدة من الوجود البريطاني الذي كان له السيطرة الفعلية على المنطقة ، وبرغم نجاح هذه البعثات في تأسيس مراكز لها في منطقة الخليج والجزيرة العربية فإنها فشلت في ترك أي أثر ديني له صفة الدوام في المنطقة التي ظلّت حلمًا يراود أذهان المبشرين إلى أن جاء ف . ت هيج F. T. Haig الذي يرجع إليه الفضل في فتح مجالات التبشير مرة أخرى أمام البعثات التبشيرية بالمنطقة .

كان هيج من المتعصبين للمسيحية ، وكان يعمل ضابطًا في الجيش البريطاني ، وقد زار هيج في عام ١٨٨٠ السواحل الغربية للجزيرة العربية وظلّ يكتب تقاريره عن سبل التنصير في الجزيرة العربية وإمكانيات التبشير فيها، وكان لتقارير هيج أثر كبير في بعث الحماس الديني لدى المسيحيين المتعصبين والراغبين في خدمة الكنيسة ، ومن بين هؤلاء كان هناك شخص اسكتلندي يدعى ايان كيث فالكونير Ion Keith Falconer ينحدر من أصول ملكية في بريطانيا ، ألهبت كتابات هيج خياله فصمّم على أن يهب حياته للتبشير في الجزيرة العربية .

وبعد أن أنهى فالكونير دراسته في جامعة كمبردج البريطانية ، تهيأ للرحيل إلى شبه الجزيرة العربية ، واختار عدن كنقطة بداية ، وفي عام ١٨٨٥ زار منطقة الشيخ عثمان بالقرب من عدن ، وأنشأ هناك بعثة تبشيرية تحمل اسمه ، ولكنه بعد فترة من العمل تبين له أنه لا يستطيع أن يقوم بعمله منفرداً من غير رعاية الكنيسة له ، ولهذا أعلن انضمام حركته إلى الكنيسة الأسكتلندية الحرة Free Church of Scottland. (٤)

وعلى الرغم من أن فالكونير قد عمل في الجزيرة العربية فترة قصيرة لا تتجاوز العامين ، فإنه نجح في جذب انتباه البعثات التبشيرية المسيحية إلى إمكانيات التبشير في الجزيرة ، فقد كانت الخطوة التي اتخذها في وضع حركته تحت رعاية الكنيسة الأسكتلندية خطوة مدروسة ، إذ قامت الكنيسة بعد وفاته في عام ١٨٨٧ ، بإكمال ما بدأه عن طريق إيفاد مبشرين آخرين ليحلّوا محلّه ، وكان لوفاة فالكونير في مطلع الشباب أثر كبير في إلهاب حماس الشباب المسيحيين الذين سرعان ما تطوّعوا لإكمال ما بدأه .

ومن الذين تطوّعوا لنشر المسيحية في الجزيرة العربية ، المبشر الأمريكي الأسقف صامويل زويمر Samuel Zwimmer الذي تسلّم لواء قيادة حركة التبشير

في الخليج والجزيرة العربية ،[٥] ليبدأ عصر التبشير الأمريكي في الخليج العربي ، ففي عام ١٨٨٩ كان ثلاثة من الشبان الأمريكيين قد اجتمعوا في مدينة نيو برنزويك نيو جرسي New Brunswick, N. J. ، وشكّلوا حركة سموها «العجلة» التي أصبحت فيما بعد تعرف بالإرسالية العربية [٦] ، وعلى الرغم من رفض المجلس الكنسي رعاية هذه الحركة ، نظراً لانشغاله بمناطق أخرى كأفريقيا والهند والصين واليابان ، فإن ذلك لم يثن المغامرين الثلاثة الذين وضعوا خطة للعمل ، وجعلوا هدفهم الأعلى الوصول إلى قلب الجزيرة العربية .

بدأت الإرسالية العربية عملها في المشرق بافتتاح محطة لها في البصرة عام ١٨٩١ ، وبعد عامين افتتحت محطة أخرى في البحرين ، ثم في مسقط ، لتعمل كمحطات إضافية ، عملت هذه المحطات كمراكز للإرساليات الأمريكية تمارس منها نشاطها الذي امتدّ ليشمل الكثير من مدن وقرى الخليج وشبه الجزيرة ، واعتمدت على التطبيب كوسيلة تدخل منها إلى قلوب أهالي المنطقة ووجدانهم ، لقد كانت الأوضاع الصحية في مناطق الخليج عامة ومنطقة الإمارات خاصة ، مهيأة لعمل تلك الإرساليات التي سرعان ما استغلت هذه الظروف لتوسيع نشاطها .

وللتعرّف على الأوضاع التي سهلت عمل تلك الإرساليات الأمريكية ، لا بدّ من إلقاء نظرة على الأوضاع العامة في منطقة الإمارات .

٣ ـ الأوضاع العامة في منطقة الإمارات في مطلع القرن العشرين

أولا : الأوضاع السياسية

على الرغم من استمرار الوجود البريطاني في منطقة الإمارات حوالي قرنين من الزمان ، فإن البريطانيين لم يقوموا بتقديم أي نوع من الخدمات العامة للأهالي ، كالخدمة العلاجية مثلا ، فقد اقتصر وجودهم على توطيد نفوذهم السياسي ،

والاستراتيجي ، وكان الشيوخ عاجزين عن طلب المساعدة الطبية من الخارج ، إذ حالت الاتفاقيات البريطانية مع هذه المشيخات دون ذلك ، ومنعت دخول أي أجنبي للمنطقة إلا بموافقة بريطانيا ، وإذا سمحت به فإنه يقتصر على بعض الزيارات التي كان يقوم بها بعض الرحالة الأوربيين إلى منطقة الإمارات . أما الخدمة العلاجية فقد اقتصر تقديمها عن طريق السفن الزائرة التي كانت نادراً ما تأتي إلى موانيء الإمارات ، وإن حدث أن مرّت بها قام الطبيب المرافق بمعالجة موظفي الوكالة الوطنية المكلفة بالسهر على مصالح الرعايا البريطانيين من الإنكليز والهنود وأحيانًا شيخ الإمارة وأسرته ، أما الأهالي فكانوا محرومين من هذه الرعاية الطبية ،لقد سهّل غياب الخدمات العامة كالعلاج والتعليم ، مهمة الإرساليات التبشيرية التي استغلت هذا الوضع ، فعملت على جلب أطباء وممرضين ومبشرين للقيام بتقديم العلاج الحديث والأدوية للأهالي .

ثانيا : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

يقدر عدد السكان الذين عاشوا في منطقة الإمارات في بداية القرن العشرين ، بحوالي ١٠٠,٠٠٠ نسمة ، تمركز معظمهم في المدن الساحلية على طول الشريط الساحلي للمنطقة ، وكانت المهنة الرئيسية للسكان آنذاك هي مهنة الغوص على اللؤلؤ ، وكان الغوص موزّعًا على مواسم ، ويعتبر الموسم الصيفي الذي يمتدّ من مايو إلى سبتمبر أهمها على الإطلاق ، وقد انعكس مردود موسم الغوص على الحياة الاقتصادية للسكان ، فالموسم الناجح يحقق رخاءً اقتصاديًا ينعم به الأهالي طوال العام ، بينما يحدث العكس عندما يكون الموسم ضعيفاً، ولقد كانت مهنة الغوص محور الحياة الاقتصادية مثلما كانت محور الحياة الاجتماعية ، وقد انعكست هذه العلاقة على التكوين الاجتماعي لمجتمع الإمارات ، فكانت طبقة الأعيان تتكون من تجار اللؤلؤ وأصحاب الأساطيل التجارية ، أما الطبقة المتوسطة فكان قوامها العاملون في مهنة الغوص من غواصين

وسيب وتجار المؤن الغذائية اللازمة لتمويل أساطيل الغوص وغيرهم ، وهؤلاء يكونون عامة الشعب ،أما الطبقة الدنيا فقد كانت تتألف من الرقيق وأصحاب الحرف اليدوية .

شهدت بداية القرن العشرين نمواً كبيرًا في صناعة اللؤلؤ انعكس إيجاباً على مجتمع الإمارات ، وطبيعي أن تكون الفئة العليا هي الطبقة المستفيدة من هذا النمو . ووفقًا لتقسيمات مجتمع اللؤلؤ ، لم يكن الغواص هو المستفيد من هذا النمو إلا فيما ندر ، وبحسب نظام الغوص القائم على نظام «السلفية» ، يبقى الغواص مدينًا للنوخذا حتى نهاية حياته ، وقد يرث أبناؤه هذا الدين ،[٧] وعليه فعلى الرغم من الازدهار الاقتصادي ، ظلّت الشريحة الكبرى من مجتمع الإمارات تعيش في مستوى خط الفقر والفاقة ، ومما زاد من انتشار الفقر أن الأمية كانت أيضًا منتشرة بشكل كبير بين السكان ، فقلة منهم كانوا يعرفون القراءة والكتابة الضروريتين لرفع المستوى الاقتصادي والاجتماعي للفرد ، وقد رافق انتشار الأمية ضعف الوعي الاجتماعي مما أدى إلى انتشار الجهل وتفشي الاعتقاد بالخرافات والأساطير ،[٨] مما سهّل عملية تغلغل المبشرين في مجتمع الإمارات .

وعلى الرغم من هذه الظروف الصعبة ، فإن المبشرين العاملين في مجالات الخليج والجزيرة العربية ، لاقوا الكثير من الصعاب في سبيل نشر دينهم ، وأول هذه الصعاب تمسك المسلمين بدينهم ، ومعلوم أن مجتمع الإمارات مجتمع مسلم ، والمسلم فيه فخور بدينه ومعتز بعقيدته ، ويعترف المسلمون بأن المسيحية دين من الأديان السماوية المنزلة ، وأن عيسى عليه السلام نبي مرسل من الله عز وجل ، وقد خصّه القرآن الكريم بمكانة ممتازة ، وذكر بأنه كلمة الله وبأنه من روح الله ، وأنه وليد العذراء مريم بلا خطيئة ، ولكن المسلمين رفضوا محاولات التنصير بكل قوة ، فكان لدى المسلمين اعتقاد راسخ بأن الإنجيل قد حُرّف ، وأنه ليس على صورته المنزلة سماوياً ، وكان المبشرون على دراية تامة بهذا الاعتقاد ،

لذلك حاولوا بطرق شتى أن يقدّموا نسخاً من الإنجيل مجّانًا لمستمعيهم ، وأن يقرأوا عليهم بعض نصوصه ، وكانوا يحاولون إقناع المسلمين عن طريق القول : «أنتم تقولون إن الإنجيل محرّف ، كيف تعرفون ذلك وأنتم لم تقرأوه بعد ، هل تحكمون على قافلة المياه بأنها غير عذبة قبل وصولها» . (٩)

ثالثا : الأوضاع التعليمية

على الرغم من أن أول آية نزلت في القرآن الكريم تحثّ على العلم والتعليم ، وهي بسم الله الرحمن الرحيم «اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم» صدق الله العظيم ، فإن الأمية كانت منتشرة في مناطق الخليج ، وكان السبب هو العزلة التي فرضتها بريطانيا على المنطقة ، فقد منعت عنها التواصل الثقافي مع العالم الخارجي ، فكانت نسبة الأمية في بعض المناطق تتعدى ٩٠٪ بين السكان ، وكان التعليم في تلك الفترة مقصوراً على التعليم الديني في الكتاتيب ، ويركّز على تعلم قراءة القرآن الكريم ، فالتعليم الديني إذاً لا يعني تعليم القراءة والكتابة ، بل يعتمد في الدرجة الأولى على التلقين والحفظ ، لذلك كان هناك تطلّع وشغف بين الأهالي وأبنائهم لتعلم القراءة والكتابة على النمط الحديث لتعويض الأبناء عما فات الآباء .

أدى غياب التعليم الحديث إلى تسهيل عمل الإرساليات التبشيرية ، فكان لمدارسها في الخليج جاذبية معينة ، لأنها تركز على تعليم الحساب واللغة الإنجليزية ، ولم يدرك الأهالي مغزى هذه المدارس إلا بعد أن انتظم الأطفال في الدراسة .

من ناحية أخرى ، دعا المبشرون إلى تأكيد العناية بالأطفال بوصفهم نواة يسهل تشكيلها ، وكذلك بالرقيق المحررين ، فقد أنشأ المبشرون في بعض حواضر الخليج كمسقط مثلاً ، مدرسة خصّصت لهم ، وحثّوا عموماً على التعليم كوسيلة لنشر ثقافتهم وإيصال رسالتهم إلى الناس ، ودعت خططهم إلى التركيز عليه كوسيلة ناجحة من وسائل التبشير .

رابعا : الأوضاع الصحية في منطقة الإمارات

سهّلت ظروف المنطقة الصحية عمل المبشرين ؛ فالأوضاع الصحية كانت متردية ، والأمراض والأوبئة متفشية ، ومما زاد الطين بلّة انتشار الخرافات والخزعبلات التي جعلت من المرض أسوأ عدو للإنسان .

كانت المسئولية الصحية في منطقة الخليج ملقاة على عاتق السلطات البريطانية في الخليج ، حيث عهدت إليها حكومة الهند البريطانية بالإشراف على الشئون العامة وإجراءات الوقاية الصحية في البلاد والحجر الصحي ،[١٠] ولكن السلطات البريطانية لم تول هذه النواحي اهتمامًا كبيرًا، فكانت أبسط الأمراض كالحصبة والملاريا والإسهال تفتك بحياة الآلاف من الأطفال سنويا . أما الأمراض الشائعة بين النساء فكان أهمها انسداد قنوات عنق الرحم ، نتيجة كثرة استخدام الملح بعد الولادة كنوع من التعقيم ، الأمر الذي تسبب ليس فقط في انسداد قنوات عنق الرحم وتقليل فرص الإنجاب ، وإنما أيضاً في موت العديد من النساء عند الولادة ،[١١] وكان الطب الشعبي شائعًا وهو يعتمد على المداواة بالأعشاب وعلى علاج الجروح بالكي بالنار ، كما كان يوصف كعلاج للملاريا والحالات المستعصية لمرض السل ، ومن الأمراض الشائعة أيضًا الكوليرا والجدري والجذام والطاعون ، كما سهّل غياب الوعي الصحي ، كغلي المياه وتعقيمها وغسل الخضروات والفواكه قبل أكلها ، من انتشار الأمراض المعدية ، عرف أهل الإمارات قديمًا العزل الصحي أو الحجر الصحي ، فكانوا يعزلون مرضاهم ، خاصة ذوى الأمراض المعدية كالجدري والجذام ، مما كان له أكبر الأثر في تلافي انتشار العدوى ، ونتيجة لهذه الأوضاع الصحية المتردية ، كانت منطقة الإمارات في حاجة ماسة إلى الخدمة العلاجية الحديثة ، وهذا يفسر السبب في تهافت الناس على خدمات المبشرين ، ويفسّر أيضًا سبب تغلغل هؤلاء في مجتمع الإمارات ،

وقد علّق أحد المبشرين على هذا الوضع قائلا : «إن غياب العلاج الحديث هو الوسيط الذي سهل لنا الوصول إلى الناس وتوزيع الكتاب المقدس ، سواء عن طريق الدكاكين التي أنشئت لتوزيع هذه الكتب ، أو عن طريق مساعدي المبشرين الذين كانوا يتجوّلون في كافة أنحاء مدن وقرى المنطقة» .(١٢)

وقد اتخذ المبشرون التطبيب وسيلة للتبشير ، لأنهم يعتقدون أن المسيح قد بعث رسولاً مبشراً وطبيباً مداوياً لآلام البشرية وآثامها ، وبالتالي اتخذ المبشرون من التطبيب وسيلة إنسانية في الظاهر للتبشير بالدين المسيحي ، ووسيلة يتسربون من خلالها إلى مجاهل أفريقيا ، وأمريكا اللاتينية ، والهند ، والصين ، وأخيرًا الجزيرة العربية .

كانت الفترة من ١٨٩٥ ـ ١٩٠٠ فترة نمو وازدهار للخدمة العلاجية التي أنشأها المبشرون في منطقة الخليج والجزيرة العربية ،فقد قاموا برحلات منتظمة إلى كافة أنحاء مدن وقرى دول الخليج ، حاملين معهم في يد صناديقهم المليئة بالأدوية والعقاقير الطبية ، وفي اليد الأخرى الكتب والكراريس الدينية لتقديمها إلى مرضاهم ، فلا غرابة أن تمتد هذه الخدمات إلى مناطق الإمارات ، فهي المفتاح السحري الذي سيفتح لهم الأبواب المغلقة في وجوههم ، وهي الوسيلة المثلى لكسب ود الأهالي ، وكسر المعارضة القوية المتوقعة من قبل رجال الدين المسلمين ، وهي إلى ذلك سبيلهم الوحيد لإزالة الحاجز النفسي القائم بين الأهالي والغربيين بصفة عامة ، لذلك فليس من الغرابة أن نجد هؤلاء الأطباء يعملون بكل جهودهم للتغلب على الصعوبات التي واجهتهم مثل اللغة ، والعادات المختلفة ورداءة الطقس ، من أجل الهدف الأكبر ألا وهو إنشاء كنيسة عربية تكون نواة لكنيسة المسيح في الجزيرة العربية .(١٣)

٤ ـ النشاط التبشيري يتذرع بالخدمة الطبية في منطقة الإمارات

المرحلة الأولى ١٩٠٠ ـ ١٩١٨

بدأت هذه المرحلة في بداية القرن العشرين عندما قام صامويل زويمر بأول

زيارة له لمنطقة الإمارات ، أو كما أسماه «ساحل القراصنة» ، وعلى الرغم من أنها كانت أول زيارة لزويمر فإنها لم تكن الزيارة الأولى لأعضاء الإرسالية الأمريكية ، فقد سبق أن قام أحد مساعديهم ويسمى «عيسى» بزيارة إلى منطقة الإمارات ، وبالأحرى إلى أبو ظبي ودبي عام ١٨٩٦ ، ولكن تلك الزيارة لم تسفر عن نتائج مثمرة ، فقد كانت رحلة لتقصّي الحقائق وإيجاد موطىء قدم لهم على ساحل الإمارات ، ومن محطاتهم في البحرين ومسقط تطلع أعضاء الإرسالية العربية إلى مدّ نفوذهم إلى منطقة ساحل الإمارات التي بدت لهم وكأنها حاجز يصعب اختراقه ، لذلك حطّ زويمر رحاله في الشارقة (١٩٠٠) بادئاً بذلك أول زيارة رسمية يقوم بها عضو من أعضاء الإرسالية الأمريكية إلى منطقة الإمارات ، وقد استقبله في الشارقة الوكيل الوطني للحكومة البريطانية آنذاك ، وهو عبداللطيف السركال ، الذي استضافه أسبوعًا كاملاً ، واستخدم زويمر كوخاً صغيراً ليكون مقراً له ، وعيادة يستقبل فيها المرضى ، وقد وجد زويمر فرصة التطبيب مناسبة قوية ليعرض فيها الإنجيل على مرضاه ويناقشهم فيه ، ولكن يبدو أن المرضى قد أعرضوا عن سماع أقوال زويمر ، واكتفوا فقط بتلقي العلاج الطبي ، وهذا ما دعا زويمر بأن يصف عرب الشارقة بأنهم «قوم مترددون ذوو قسوة واضحة» ،[١٤] وخلال هذه الزيارة قام زويمر بزيارة المناطق النائية الداخلية كالبريمى . ففي إحدى زياراته للبريمي قابل شيخها الذي وصفه زويمر بأنه «رجل ذكي» ، وعندما تحدثنا عن المسيحية أعرب عن رغبته في سماع صلواتنا ،[١٥] وقد ادعى زويمر بأن شيخ البريمي اشترى منه إنجيلاً عربيًا ودعاه لزيارة البريمي مرة أخرى .

صحب زويمر معه في هذه الزيارة فريقًا يضم مساعداً له وممرضاً ، وقد ذكر في تقرير له إلى مجلس الإرسالية بأنهم لاقوا حماسًا كبيرًا في دبي ، وعلى حد قول زويمر «لقد ارتكبنا خطأً في أننا أخذنا معنا ٣٥ جزءاً فقط من الكتاب المقدس ، ولكن هذه الكراريس بيعت قبل الظهيرة» ، [١٦] هذا النجاح ، في رأي

زويمر ، دعاهم إلى التفكير في تأجير دكان لبيع الكتب الدينية ، حتى يتسنى لهم البقاء مدة أطول على منطقة الإمارات ، وقد وصف زويمر الأوضاع في المنطقة بأنها أوضاع ملائمة جداً ، وهناك فرص ذهبية لعمل المبشرين ، وإذا ما جعلنا الخدمة الطبية مجانية ،فإننا نستطيع فتح الكثير من الأبواب المغلقة ،خاصة والناس هنا على استعداد للدفع مقابل الخدمة الطبية» .[١٧]

كانت الرحلة الأولى لزويمر في الواقع رحلة لجمع الحقائق أكثر منها رحلة تبشيرية ، ولكنها مهدت السبيل لرحلات أخرى قامت بها الإرساليات الأمريكية ، فهي تعتبر الأولى التي تغلغلت في منطقة الإمارات .

في عام ١٩٠١ جاء زويمر وفريقه مرة أخرى لزيارة منطقة الإمارات ونزل بادىء الأمر في مدينة أبوظبي حيث رفض شيخها زايد بن خليفة الأول (١٨٥٥ ـ ١٩٠٩) السماح لهم بدخول المدينة ما لم يأتوا بتصريح من قبل السلطات البريطانية في الإمارات ، وحينما تم الحصول على هذا التصريح سمح لزويمر وفريقه بالنزول في أبوظبي التي وصفها زويمر بأنها مدينة تقع على جزيرة وفي وسطها تقوم قلعة الشيخ زايد .

بقي زويمر فترة في أبوظبي ، عالج خلالها العديد من المرضى مع أنه لم يكن طبيبًا مؤهلاً ،فقد كان يحمل معه أدوية وعقاقير طبية لمرضى الملاريا والإسهال وآلام الروماتيزم وبعض آلات خلع الأسنان ، ولم يكتف زويمر بزيارة المدن الساحلية كدبي والشارقة وأبوظبي ،بل زار أيضًا المناطق النائية ، وكانت وسيلة مواصلاته ظهور الجمال والحمير التي كانت تعبر بهم السبخات والصحارى إلى مختلف أرجاء المنطقة .

ولكن هذه الظروف الطبيعية الصعبة لم تمنع زويمر وفريقه من مواصلة العمل الذي جاءوا من أجله وهو (توصيل الإنجيل إلى كل مسلم في أرجاء هذه المنطقة الشاسعة) .[١٨]

لفتت رحلة زويمر هذه أنظار المبشرين الآخرين الذين رأوا في منطقة الإمارات حقلاً بكراً يمكنهم من زرع أفكارهم فيه ، وفي عام ١٩٠١ جاء مبشر آخر هو جيمس مويرديك ، James Moerdyk ، يحمل على حد تعبيره «كلمة المسيح إلى منطقة الساحل» ، [١٩] وصل مويرديك إلى الشارقة حيث أقام بادىء الأمر في أحد المنازل التابعة للشيخ ، وبعد ذلك استأجر ومرافقوه كوخاً وضعوا فيه أغراضهم الشخصية وأدواتهم الطبية وكتبهم الدينية . وكان هذا الكوخ هو «البيت المسيحي الوحيد على طول الساحل» . [٢٠]

وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة التي بذلت من أجل التقرب إلى الأهالي عن طريق تقديم الخدمة الطبية العلاجية لهم ، فإن ذلك لم يقربهم من الأهالي الذين ما إن عرفوا هدف المبشرين الحقيقي حتى ابتعدوا عنهم ، وحاول مويرديك وأتباعه تأجير دكان لعرض كتبهم في الشارقة ، إلا أن محاولاتهم تلك باءت بالفشل ، لأن أصحاب الدكاكين حين أدركوا الغرض الحقيقي لهؤلاء الغرباء رفضوا تأجيرهم المكان ، على الرغم من أن الكثير من هذه المحلات كانت غير مؤجرة ، كذلك الشيوخ ، فما إن سمعوا بأعمال هؤلاء المبشرين حتى قاموا بتحذير رعاياهم من التعامل معهم أو تأجيرهم أي دكان ، وهكذا لم يجد المبشرون من يشتري كتبهم أو يستمع إليهم ، . وكثيراً ما تعرض الأهالي للمبشرين في الطرقات حانقين من أعمالهم ومندّدين بنشاطهم ، ويروى مويرديك أنهم كانوا مستغرقين في عملهم يوماً في عجمان ، فلم ينتبهوا إلى ذلك الرجل الذي جاء يحذر من التعامل معهم أو شراء كتبهم ، أما رجال الدين فقد أمروا الناس بإحراق الكتب الدينية المسيحية ، وحذّروا من التعامل مع المبشرين ، وعلى الرغم من هذه المعارضة ، فإن مويرديك ادعى أنهم قد باعوا عدداً كبيراً من الكراريس الدينية ، وهو ادعاء يجافي الحقيقة! [٢١] .

بقي مويرديك في المنطقة حوالي شهرين ، زار خلالها معظم الإمارات ، ولكن جولته تلك لم تنجح في تحقيق هدفها الأول وهو التنصير .

وقد اعترف موير ديك نفسه بأنه لم ينجح خلال تلك الفترة في إقناع أي مسلم بتغيير دينه واعتناق المسيحية ، ولكن زيارته أفسحت المجال أمام زيارات أخرى لمبشرين آخرين ، قدموا إلى المنطقة ،ففي العام ١٩٠٢ زار الدكتور شارون توماس Sharon Thomas منطقة الإمارات ، وهي المرة الأولى التي يقوم فيها طبيب مجاز بزيارة لهذه المنطقة ، وكان توماس قد سمع الكثير عن منطقة الإمارات من التقارير التي كتبها المبشرون السابقون الذين زاروا المنطقة ، ورأوا في الخدمة الطبية العلاجية وسيلة لاختراق أسوارها ، وقد جاءت زيارة توماس تتويجاً لجهود أفراد البعثة التبشيرية الذين كثيراً ما ألحوا على زيارة طبيب مؤهل للمنطقة .

وصف توماس زيارته للشارقة بأنها أهم حدث في تاريخ الإرسالية العربية خلال الربع الأول من عام ١٩٠٢ ،[٢٢] وقد رافقه خلال هذه الزيارة مبشر آخر هو موير ديك ، بالإضافة إلى ممرض مساعد يدعى جبرائيل ، وقد أبحر الفريق على متن سفينة هندية كانت في طريقها إلى جزيرة أبو موسى ، ولما كانت الجزيرة تبعد ٤٥ ميلاً فقط عن الشارقة فقد وافق الفريق على ركوب متن هذه السفينة حيث سيتم من هناك ترتيب سفينة أخرى تحملهم إلى الشارقة ،وقد وصف توماس جزيرة أبو موسى بأنها جزيرة جميلة تكثر فيها الظباء والغزلان .

وصل أفراد الفريق إلى الشارقة في عطلة عيد الفصح ، وما كاد الناس يسمعون بوصولهم حتى توافدوا إلى مقر إقامة البعثة طلبًا للعلاج ، وكان لدى السكان اعتقاد بأن كل مبشر هو في الواقع طبيب مداو ، هذا الاعتقاد جعل الناس يتسارعون لزيارة المبشرين كلما قاموا بزيارة لمنطقة الإمارات ، وقد وصف توماس تكاثر الناس عليهم بأنهم «كانوا يحاصروننا منذ الصباح الباكر ـ لدرجة أننا وجدنا صعوبة في إبعادهم ريثما نكمل إفطارنا»[٢٣] ، وكانت النساء تأتين حاملات معهن قدورهن النحاسية والتي كانت توضع بين شقوق الكوخ ليستلمن فيها الدواء والكراريس الدينية[٢٤] بعد استراحة بسيطة في الشارقة بدأ الفريق التبشيري

الطبي عمله ، فطاف موبرديك ومرافقه جبرائيل مناطق الشارقة حاملين معهم حقيبة الدواء والكراريس الدينية ، وقد ادعوا بأن الكثير من هذه الكتب قد بيعت خلال فترة وجيزة ، أما توماس فقد باشر عمله الطبي ، وادعى بأنه عالج حوالي ٥٠٠ مريض ، وأجرى العديد من العمليات الجراحية التي شملت عمليات الفتق وانشقاق الشفة العليا .

وجدت الإرساليات الأمريكية أن الفرصة مهيأة لها للعمل في منطقة الإمارات ؛ فانتشار المرض والجهل ساعد على إنجاح عمل أطباء الإرسالية الذين سارعوا إلى طلب المعونة من مجلس الإرسالية في الولايات المتحدة بإرسال طبيب يقيم في منطقة الإمارات ، ولا عجب ، فحينما يدخل المرض من الباب يأتي طبيب الإرسالية من النافذة ، وتكون الأوضاع مهيأة لاستقباله ، وقد أشاد المبشرون بأهمية منطقة الإمارات لأنها في رأيهم المعبر الذي سيحملهم إلى منطقة وسط شبه الجزيرة العربية ومنطقة نجد ، ولهذا بذلت كل الجهود لإبقاء طبيب مؤهل في الإمارات على مدار السنة .

كان لنجاح الرحلة الطبية الأولى للدكتور شارون توماس أثر كبير في نفسه ، شجعه على القيام برحلة مماثلة لمنطقة الإمارات ، ففي عام ١٩٠٦ اصطحب توماس معه ممرضاً يساعده اسمه أمين ، بالإضافة إلى كمية من الأدوية وبعض الأدوات الطبية اللازمة لإجراء العمليات الجراحية ، ولم ينس توماس أن يأخذ مجموعة من الكراريس الدينية معه .

بدأ الدكتور توماس في استقبال المرضى حال وصوله ، وكان فيهم مرضى العيون والأسنان واللثة ، وادعى توماس أنه استطاع أن يبيع لهؤلاء المرضى حوالي ١٠٠ كراس ديني ، وفي تقريره إلى مجلس الإرسالية ذكر توماس أن موقف الأهالي قد تحسن كثيراً عما كان عليه في السابق ، فقد أدى تزايد شعبية أطباء الإرسالية وترددهم على الإمارات إلى تحسن موقف الأهالي منهم ، وأصبح الناس أكثر مرونة

وأكثر قابلية للاستماع إلينا وأكثر تسامحًا نسبيًا[٢٥] ، وفي نهاية رحلته والتي استمرت عدة أيام ، غادر توماس منطقة الإمارات تاركًا مساعده أمين ليكمل العلاج الذي بدأه الفريق .

وظلّت الإرساليات الأمريكية تتوافد باستمرار على منطقة الإمارات ، وخاصة بعد أن أدرك أفرادها بأن زيارتهم الطبية تلقي الترحاب من قبل الأهالي ، ذلك أن احتياج الناس للخدمة الطبية الحديثة جعلهم يرحبون بهؤلاء الغرباء ، بل ويبذلون قصارى جهودهم حتى تستمر زياراتهم للمنطقة ، ولكن على الرغم من ترحيب الأهالي بالخدمات الطبية التي تقدّمها الإرساليات ، فإنهم أعرضوا عن سماع مناقشاتهم الدينية ، فلم يرد في التقارير الأمريكية أن أي شخص اعتنق المسيحية مما يؤكد وعي الأهالي لعمل هذه الإرساليات التي لم تكف عن محاولاتها التبشيرية .

وفي عام ١٩٠٨ قام الدكتور ستانلي مليري Stanley Mylrea بزيارة لمنطقة الإمارات حيث حطّ رحاله في دبي ، وقد رافق مليري في رحلته هذه مساعده أمين وممرض يدعى جوليوس ، واستقبلهم الوكيل الوطني عبداللطيف السركال في منزله حيث مكثوا في ضيافته شهرًا.

بدأ ميلري عمله حالما استقر في الشارقة ، كطبيب مجاز مؤهل ، وبدأ في معالجة الأهالي من مختلف الأمراض ، وإجراء عمليات جراحية برسوم زهيدة في الواقع ، إلا أنها تعتبر باهظة في نظر الأهالي ، وخاصة عندما لا يكون موسم الغوص مواتياً ، وقد علق ميلري على هذا الوضع في تقريره إلى مجلس الإرسالية قائلاً : «عندما لا تشترون أنتم في أمريكا اللؤلؤ لا نقبض نحن هنا ثمن خدمتنا» ،[٢٦] كما لاحظ ميلري تمسك الأهالي بدينهم حتى عندما تتعرض حياتهم للخطر ، فيروي ميلري قصة رجل جاءه لإجراء عملية لعلاج انشقاق في الشفة العليا لفمه ، وعندما أخبره ميلري بأن العملية ستجرى تحت تأثير المخدر ، رفض الرجل لأن المخدر يحتوي على مادة مسكرة .[٢٧]

كانت العمليات الجراحية تجرى عادة في الهواء الطلق وأمام جمهور كبير من المتفرجين وأهالي المرضى ، وكثيرًا ما تكون الأدوات الطبية غير معقمة مما ينتج عنه الكثير من المضاعفات بالنسبة للمرضى ، كما يحدث في كثير من الأحيان أن تنفد كمية القطن والشاش ،فلا يجد الطبيب أمامه من وسيلة إلا استخدام القماش العادي وغير المعقم ،[٢٨] وكثيرًا ما كان الطبيب يستخدم مكان إقامته كعيادة يستقبل فيها مرضاه ، لقد كان دور الطبيب المبشر صعبًا للغاية ، فعلى عاتقه تقع دائمًا مسؤوليتان: الأولى معالجة آلام الناس وأوجاعهم ، والثانية التبشير ، واذا كانت المسؤولية الأولى قد لاقت الترحيب والحفاوة من قبل الأهالي ،فقد لاقت الثانية الصدود والمعارضة ،وعلى الرغم من الظروف الاقتصادية والصحية السيئة ،فقد كان الناس على وعي تام بالأهداف الحقيقة لهؤلاء المبشرين ، وكان تمسك الأهالي بدينهم قوياً لدرجة جعلت هؤلاء المبشرين يتساءلون عن جدوى عملهم في هذه المنطقة .

ظلّ ميلري في الشارقة فترة أسبوعين عالج خلالها العديد من المرضى ، وقد ذكر بأن المرضى كانوا يتوافدون على العيادة حتى في أيام الأحد ، وهي العطلة الأسبوعية والمخصصة لتأدية الصلوات ، وبعد أن فرغ من عمله في الشارقة ، توجّه ميلري إلى إمارة دبي حيث بقي هناك فترة أسبوعين آخرين عالج خلالها حوالي ٧٥٠ مريضًا.

ويذكر ميلري أنه على الرغم من الخدمات الطبية التي كان المبشرون يقدمونها فإن الأهالي لم يخفوا امتعاضهم من الأهداف الحقيقية الكامنة وراء مجيء هؤلاء الأجانب ، فكثيراً ما يتعرضون للسباب من قبل بعض الناس الذين كانوا يركضون وراءهم ويطلقون الصيحات «نصراني ـ نصراني» .[٢٩]

كانت زيارة ميلري هي آخر زيارة قام بها طبيب في الإرسالية الأمريكية لمنطقة الإمارات قبل الحرب العالمية الأولى ، ففي عام ١٩١٠ أغلقت أبواب

الإمارات نهائيًا في وجوه المبشرين ، ففي ديسمبر من عام ١٩١٠ قامت سفينة بريطانية تدعى «هايثنس» (Hyacinth) بهجوم مسلح على بعض المنازل في دبي ، أسفر عن مقتل بعض الأهالي ، ذلك أن الإنكليز اتهموا أهالي دبي بمحاولة لتهريب الأسلحة إلى السواحل الفارسية ، وأسفر هذا الحادث عن إغلاق موانئ الإمارات ليس فقط في وجه البريطانيين ولكن في وجه جميع الأجانب ، الأمر الذي انعكس سلباً على نشاطات المبشرين .

ظلّت منطقة الإمارات مغلقة أمام الغربيين فترة عقد من الزمان حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ ، ففي فترة الحرب التي دامت أربع سنوات (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ، تضرّر بشكل عام نشاط المبشرين ليس فقط في منطقة الخليج والجزيرة العربية ، ولكن في كافة أنحاء العالم ، قد أثرت الحرب الدائرة في أوروبا على حركة انتقال المبشرين في العالم ، وتقلص نشاطهم نظرًا لنقص الإمكانيات المادية وقلة التبرعات الفردية للهيئات المسيحية التي ترعى نشاطات هؤلاء المبشرين في العالم . فبينما بلغ عدد المبشرين الذين تم إرسالهم في عام ١٩١٤ حوالي ٤٤ شخصًا ، تقلص عددهم في عام ١٩٢٠ إلى حوالي ١١ شخصاً.[٣٠]

لقد أسفرت الحرب العالمية الأولى عن هزيمة الدولة العثمانية وتفكك أوصالها وتقسيم ممتلكاتها السابقة بين الحلفاء ، . وأثرت الأوضاع الاقتصادية السيئة بالإضافة إلى الأوضاع السياسية المتغيرة ، وتحركات جيوش الحلفاء ، ودعاية الدولة العثمانية الراغبة في إقصاء أي نفوذ غربي عن المنطقة ، على النشاط التبشيري ، ولكنها لم تضع نهاية له ، فقد شهد العقد الثاني من القرن العشرين نشاطاً تبشيرياً متزايداً ، ولم يفقد المبشرون ثقتهم في استعادة جهودهم في شبه الجزيرة العربية .

وإذا كان العقد الأول من القرن العشرين هو فترة فتح الأبواب المغلقة ودخول مناطق جديدة في الخليج ، فإن العقد الثاني قد تميّز بأنه عصر تقوية

الروابط مع المنطقة . وشهدت نهاية العقد الثاني من القرن العشرين فترة جديدة في النشاط التبشيري في المنطقة قائم على تطوير نوعية الخدمة العلاجية وتقديمها إلى طوائف الناس كافة ، وازدادت في هذه الفترة أعداد المبشرين وجميعهم كانوا أطباء مؤهلين ، وتباهت الإرسالية العربية الأمريكية بأنها قد نجحت في احتلال ساحل الخليج العربي بأكمله عن طريق إنشاء سلسلة من المحطات ، بدأت من البصرة في شمال الخليج وانتهت في مسقط ، حتى إذا تدعم الوجود البريطاني في الخليج ، وتزايدت المصالح الاقتصادية للقوى الأجنبية في الخليج ، أصبح لزامًا على بريطانيا ليس فقط تكثيف وجودها السياسي ، ولكن أيضاً تطويق المنطقة بسياج قوي يتمثل في تلك الفترة بإنشاء خط جوي إمبراطوري ، يربط لندن بمستعمراتها في الشرق الأقصى ، ويتوسط المستعمرات البريطانية ، لذلك أصبح الحفاظ عليه ضرورة إمبراطورية (Imperial Necessity) .أثرت هذه الأوضاع بشكل كبير على نشاط الإرساليات المسيحية العاملة في الخليج ، فتقلّص نشاطها ، واقتصر على عمل الإرسالية العربية الأمريكية .

وكان الهدف الأول لها هو التبشير في المناطق الداخلية لشبه الجزيرة . فما إن وضعت الحرب أوزارها حتى بادر المبشرون إلى تحقيق هذا الهدف ، وبدأوا التجول في مناطق الخليج . وكانت لديهم قناعة تامة بأن التطبيب في هذه المرحلة هو الوسيلة التي أثبتت جدواها للتوغل في مناطق الخليج والجزيرة العربية ، وهو أسهل طريق إلى قلوب الأهالي ، وتبليغ رسالتهم الأولى ، رسالة المسيح .

لقد كان أهالي الخليج في تلك الفترة في أمس الحاجة للخدمة العلاجية الحديثة كما ذكرنا ، لأن الحرب العالمية الأولى تركت بصماتها على المنطقة. فنقصت المؤن وانتشرت الأوبئة ، وخاصة الكوليرا ، إضافة إلى أن الظروف الاقتصادية ساعدت على نشر الأمراض في المنطقة ، وفي هذه الفترة بالذات ، كانت سمعة مستشفى البحرين التذكاري ، والذي أنشئ عام ١٩٠٢ ، قد وصلت

إلى كافة أنحاء الخليج وذاع صيته ،فقصده أهالي الخليج عامة والإمارات خاصة، ورأى المبشرون في هذا المستشفى فرصة للتعريف بنشاطهم ونشر رسالتهم، وسرعان ما أرسلوا الدعوات إلى شيوخ الخليج عارضين عليهم القدوم ، وتقديم الخدمة العلاجية المتطورة إلى أهالي مناطقهم ، ورحب الشيوخ بهذه الدعوة ودعوا أطباء الإرسالية إلى القدوم إلى بلادهم من أجل رعاية الأهالي ، فكان ذلك بداية مرحلة جديدة في النشاط الطبي للإرساليات الأمريكية في منطقة الخليج عامة والإمارات خاصة ،لقد انتهت مرحلة إثبات الوجود وتثبيت الأقدام ، وبدأت مرحلة جديدة هي العمل من أجل الهدف الأكبر ألا وهو التبشير .

المرحلة الثانية ١٩١٨ ـ ١٩٣٩

تميزت هذه المرحلة بكثافة الوجود التبشيري الأمريكي واحتكاكه مع الطبقة العليا في مجتمع الإمارات ممثّلاً في الشيوخ ورجال الأعمال ، وقد ركّزت الإرسالية الأمريكية في هذه الفترة على انتقاء مبعوثيها ،فجميعهم كانوا أطباء مؤهلين يساعدهم ممرضون وقد اصطحبوا معهم كميات كبيرة من الأدوية وجلبوا معهم المعدات الطبية اللازمة لإجراء عمليات جراحية ، فضلاً عن إحضار كميات كبيرة من الكتب والكراريس الدينية .

وتميّزت هذه المرحلة أيضًا بجرأة العمل التبشيري ، وتَدَخُّل المبشرين في الأوضاع الداخلية في منطقة الإمارات .

بدأت هذه المرحلة في عام ١٩١٨ بتوجيه دعوة من الإرسالية الأميركية إلى عدد من شيوخ الخليج عارضين عليهم القدوم إلى بلادهم ومعالجة الأهالي ، واستجاب لهذه الدعوة الشيخ حمدان بن زايد حاكم أبو ظبي (١٩١٢ ـ ١٩٢٢) ، حيث دعا طبيب الإرسالية وهو بول هاريسون Paul Harrison لزيارة أبو ظبي لعلاج عمه الذي كان يعاني من مرض الفالج «الرعاش»[٣١] ، وجاءت هذه الدعوة لتفتح صفحة جديدة في العلاقات بين أطباء الإرسالية وبين منطقة الإمارات ، فهذه هي

المرة الأولى التي يدعي فيها طبيب ومبشر لزيارة المنطقة ، ووجد المبشرون في هذه الدعوة مناسبة لإعادة فتح الأبواب التي أوصدت في وجوههم قبل عشر سنوات ، ولإعادة مدّ الجسور التي تقطعت بينهم وبين منطقة الإمارات ، وعلى الرغم من أن هذه الدعوة كانت قد وجّهت لهاريسون بوصفه طبيبًا وليس مبشّرًا فإن تصميم الإرسالية الأمريكية على الاستفادة من هذه الفرصة الذهبية كان جاداً، وسرعان ما لبى هاريسون الدعوة وحزم أمتعته متوجّهًا إلى أبو ظبي ، مستهلاً بذلك أول زيارة رسمية يقوم بها لمنطقة الإمارات .

استقبل هاريسون في أبو ظبي استقبالاً حارًا واستمر أسبوعًا في أبو ظبي تردد عليه خلالها المئات من الأهالي طالبين العلاج ، ويروي هاريسون أن من بين الذين ترددوا عليه في تلك الزيارة مرضى يشكون من مختلف الأمراض المعوية والملاريا والفتاق وأمراض العيون والأسنان واللثة ، وقد أجرى هاريسون العديد من العمليات ، وعلى الرغم من عدم وجود عيادة متخصصة فقد كان يجري عملياته في الهواء الطلق أمام جمهور كبير من المتفرجين(٣٢).

ظلّ استقبال الشيخ حمدان الحار لهاريسون عالقًا في ذهن الأخير ، وقد فسره على أنه استقبال له بوصفه مبشّراً أيضا ، ولقد اكتسبت ضيافة الشيخ حمدان لهاريسون وبعثته أهمية كبرى ، حيث رأى هاريسون بأن «تكرار الدعوات ستكون كالشلال المندحر والذي سيؤدي في النهاية إلى ذوبان الصخور» (ويعني المعارضة المحلية)(٣٣).

وصفت الإرسالية استجابة الشيخ حمدان بأنها كالمفتاح الذي سيؤدي إلى فتح كافة الأبواب المغلقة ، وبالتالي جندت كافة الإمكانيات لإنجاح تلك المهمة ، ولم يكن بول هاريسون طبيباً عادياً بل كان يتمتع بشخصية فذة ودبلوماسية من الطراز الأول ، وبرغم أنه لم يكن يتقن اللغة العربية إتقانًا تامًا فإنه لم يجد صعوبة كبيرة في التفاهم مع الناس ، لأنه كان قد اصطحب معه أحد الممرضين في

البحرين لكي يتولى الترجمة والتمريض في آن واحد ، ووصف هاريسون هذه الزيارة التي كانت فاتحة لزيارات متتالية ،بأنها أنجح وسيلة لاكتساب ود الأهالي ،[٣٤] فقد كان المرضى يتوافدون عليه بالمئات إما طلباً للدواء وإما لإجراء العمليات الجراحية ،وقد أحضر الأهالي معهم نساءهم وأطفالهم وعبيدهم بل وحتى أيضًا حيواناتهم ، فقد روى هاريسون أنهم كانوا يستقبلون حوالي مائتين من المرضى يوميًا.[٣٥] .

ذاعت شهرة هاريسون ، ذلك الطبيب المداوي ووصلت إلى باقي أنحاء الإمارات ، وسرعان ما جاءته دعوات مماثلة من شيوخ الإمارات الأخرى كدبي والشارقة وأم القيوين ، يدعونه فيها لزيارتهم وعلاج رعاياهم ، وجد هاريسون في هذه الدعوات الفرصة الذهبية التي كان ينتظرها طويلاً ،وهذا ما جعله يسارع إلى تلبية جميع الدعوات ، فبعد أن انتهت مهمته في أبو ظبي ، توجه هاريسون إلى دبي «حاملاً تحيات الشيخ حمدان بن زايد ، حاكم أبو ظبي ، إلى الشيخ سعيد آل مكتوم ، حاكم دبي»[٣٦] .

وصل هاريسون إلى دبي وظلّ فيها مدة أسبوع تقريباً زاره خلالها العديد من المرضى . بعد ذلك انتقل إلى الشارقة حيث استقبل فيها استقبالاً رسميًا لم يشهد له هاريسون مثيلاً في منطقة الإمارات ، فقد أقام له الشيخ سلطان بن صقر حاكم الشارقة حفلة عشاء لتكريمه دعا إليها العديد من الشخصيات البارزة في الشارقة ، ويروي هاريسون أنه بعد انتهاء العشاء نهض المتحدث الرسمي ليوجه لهاريسون الدعوة طالبًا منه البقاء بصورة دائمة في المنطقة ومستفسراً «إلى أي قسم من أقسام الوكالة البريطانية يجب أن ترسل الدعوة»[٣٧] ، وأجابهم هاريسون بأنه يتمنى البقاء في منطقة الإمارات ، ولكن بقاءه يعني إيقاف العمل في مستشفيات أخرى في الخليج كمستشفيات الكويت والبحرين ، ولكن وعدهم بأن يلقى طلبهم بتخصيص طبيب مقيم الاهتمام من قبل الإرسالية الأمريكية .

وبالإضافة إلى الشارقة فقد زار هاريسون أيضًا أم القيوين ، وعالج فيها العديد من المرضى الذين سمعوا عن هاريسون من أهالي الإمارات الأخرى ، وقد تردد على هاريسون في هذه الزيارة المئات من المرضى ، وفي نهاية زيارته للمنطقة دعا هاريسون في تقريره إلى الإرسالية الأمريكية للاهتمام بمنطقة الإمارات حيث تشكل منطقة حيوية من عمان وبها «فرص تعجز الكلمات عن وصفها» ،[٣٨] وقد دعا هاريسون في تقريره إلى إقامة مستشفى في دبي . . . «هذا المستشفى الذي سيقوم على الأقل بألف عملية جراحية في العام الواحد» ،[٣٩] كذلك دعا هذا الطبيب المبشّر للاهتمام بالمنطقة من الناحية الروحية «فالناس هنا لديهم استعداد فطري لسماع وتقبل دعوتنا . . . فحاجة المنطقة ليست فقط بدنية ولكن روحية أيضاً»[٤٠] .

ويبدو أن الأمر قد اختلط على هاريسون ، فقد فسّر استقبال الناس له وترحيبهم به على أنه ترحيب لشخصه كمبشّر ، وفسّر تقبّل الناس لخدماته الطبية على أنه تقبّل منهم أيضًا للدعوة الدينية التي جاء يبشر بها ، ولم يكن يدور بخلد هاريسون بأن التسامح الديني كان طابعاً غالباً على السكان ، فقد كان مجتمع الإمارات مجتمعًا تجاريًا مفتوحاً ،فعلى ساحل الإمارات عاشت جاليات مسيحية وهندوسية من طائفة البانيان ولم يتدخل أحد لإيذائهم أو منعهم من ممارسة شعائرهم الدينية ،لهذا لم يكن من الغريب أن يسأل أحد الأشخاص في أبو ظبي عما إذا كان هاريسون يؤدي صلواته يوم الأحد أم لا ، فقد كان السؤال بدافع المجاملة والفضول ، وقد ترتب على هذا السؤال أن قام هاريسون بأداء قداس يوم الأحد أمام جمع غفير من الأهالي المتفرجين .

كان من الممكن أن تكون زيارة هاريسون هذه زيارة ناجحة من وجهة نظر الإرسالية الأمريكية ، فقد نجح هاريسون في اختراق الحاجز النفسي وفتح الأبواب التي أغلقت في وجوههم لمدة عقد من الزمان ، واستطاع هاريسون عقد علاقات

ودية ليس فقط مع الأهالي ولكن أيضًا مع شيوخ المنطقة وأعيانها ، ولكن الخطأ الذي ارتكبه هاريسون فيما بعد كاد يوصد أبواب الإمارات مرة أخرى ليس في وجهه فقط ، ولكن في وجه أطباء الإرسالية الأمريكية جميعاً ،ففي تقرير له للمقيم السياسي في بوشهر ، كتب هاريسون شرحاً مفصلاً عن الأوضاع السياسية للمنطقة ، ووضع تجارة الرقيق وزعم أن أوضاع الرقيق في الإمارات سيئة ، ودعا إلى حمايتهم وعتقهم ، وتناسى هاريسون أن العديد من مرضاه كانوا رقيقًا عادة ما يرسلون للعلاج من قبل أسيادهم ولم يكن العلاج مجانيًا ولكن برسوم باهظة بعض الشيء بالنسبة لأوضاع تلك الأيام ، وعلى الرغم من ذلك لم يكن يبخل الأسياد على عبيدهم بثمن العلاج ، بالإضافة إلى ذلك لم تكن أوضاع الأسياد أنفسهم جيدة ، فالجهل والفقر وغياب الوعي الصحي جعل الناس يتساوون أمام المرض .

كان لهذا التقرير أصداء واسعة ليس فقط في الإمارات ولكن في الحكومة البريطانية ، فقد أحست الأخيرة بأن أعمال المبشرين تكاد تمثّل تدخلاً مباشرًا في شئون المنطقة الداخلية ، الشيء الذي اعتبرته بريطانيا خرقًا صريحًا لنصوص اتفاقياتها التي عقدتها مع الإمارات ، كما خشيت بريطانيا بأن تتسبب أعمال المبشرين هذه في خلق استياء عام في الإمارات مما ينعكس على مصالحها الحيوية في المنطقة ، فأرسلت تحذيرًا إلى ممثليها في الخليج بأن يقوموا بتحذير المبشرين الأمريكيين من أي تدخل خارج عن نطاق عملهم ،[٤١] أثارت انتقادات هاريسون أيضًا حفيظة أهالي المنطقة الذين أحسوا بأن الأخير يتدخل في شئونهم المحلية ، وكاد الأمر يؤدي إلى هدم ما بناه هاريسون لولا أن سارعت الحكومة البريطانية بتهدئة الأوضاع وطمأنت الأهالي على أنها لن تتخذ أي إجراءات لعتق العبيد .

كان لزيارة هاريسون الأولى انعكاسات سياسية واجتماعية بعيدة المدى ، فمن الناحية السياسية نبّهت بريطانيا إلى ضرورة مراقبة الأوضاع في المنطقة

مراقبة شديدة ، وفرض رقابة صارمة على تحركات الأجانب من غير البريطانيين حتى لا تتعرض مصالحها للخطر ، ومن الناحية الاجتماعية فقد خلقت زيارة هاريسون وعيًا صحيًا متزايدًا بأهمية الطب الحديث في معالجة أسقام الناس وآلامهم ، وبدأ التفكير في إقامة مستشفيات دائمة في المنطقة ، والترحيب بالخدمة العلاجية التي يقدمها الغربيون ، هذا دفع الأهالي إلى قبول دعوة هاريسون الثانية لزيارة منطقة الإمارات .

ففي عام ١٩٢٢ قام هاريسون بزيارة لمنطقة الإمارات للمرة الثانية ، وعلى الرغم من أصداء الزيارة الأولى فإن هاريسون استقبل هذه المرة أيضًا استقبالاً حارًا يعكس مدى حاجة السكان لخدماته الطبية .

جاءت هذه الزيارة بناء على دعوة وجّهت لهاريسون من قبل الشيخ سعيد، حاكم دبي ، وصل هارينسون إلى الإمارات وتمكّن من معالجة العديد من المرضى ، ويروي هاريسون أن الأوضاع الصحية السيئة في الإمارات جعلته مشغولاً على الدوام بمتابعة حالات المرضى الذين كانوا يتوافدون عليه بالمئات ، حتى إنه كان لا يجد الوقت الكافي لممارسة عمله كمبشر ، فقد كان يستقبل المرضى منذ الصباح الباكر وحتى غروب الشمس ، مما جعل مهمته كمبشر مهمة صعبة للغاية .[٤٢]

ويبدو أن هاريسون قد كتب ذلك في تقريره لمجلس الإرسالية ليبرر فشله في عدم إقناع الأهالي باعتناق المسيحية ، وفي غضون الرحلة قام هاريسون بزيارة عجمان بدعوة من أحد الأعيان وهو ناصر بن لوتاه ، ويروي هاريسون أن ابن لوتاه أقنعه بإقامة مستشفى صغير بتمويل محلي يستقبل فيه مرضاه فتم إنشاء أول مستشفى في عجمان ، وكان البناء على شكل غرفة من سعف النخيل ، وكان كل مريض يجلب معه فراشه بينما يقوم المستشفى بتقديم العلاج والطعام للمريض .

كان هذا المستشفى نواة للعلاج الحديث في إمارة عجمان ، فكان كما وصفه هاريسون «مستشفى حديثًا على المستوى المحلي» ،[٤٣] وكان العربي ، على حد

تعبير هاريسون ، يفضل النوم على الأرض ، ولكن الأرض هنا كانت مليئة بالقراد (حشرة تعيش على روث الجمال) لهذا كان المرضى يجلبون معهم فراشهم ،[٤٤] أما في أم القيوين فقد اتخذ هاريسون أحد المنازل ليكون مستشفى له وكان بعض المرضى ينامون في الغرف غير المستخدمة ، أما البعض الآخر فكانوا ينصبون خيامًا ينامون فيها ، وفي منطقة الحمرية قد تم تجهيز عريش من سعف النخيل لاستخدامه كمستشفى ، هكذا استطاعت بعثة هاريسون توفير الرعاية الصحية للأهالي في أبسط أشكالها ، ففي هذه المستشفيات كانت تجرى العمليات وتعقم الجروح ويقدّم الدواء والعلاج يوميًا للمئات من الأهالي ، ففي تقرير لهاريسون ذكر أنه كان يقوم بحوالي ٥٠ عملية فتق في كل رحلة مما يبين حجم الدور الذي كان يقوم به .

ولكن ماذا عن هدف الإرسالية الأول وهو التبشير؟ على الرغم من الإقبال الشديد الذي لاقته الخدمات الطبية للإرساليات الأمريكية فإن الناس قد رفضوا تقبل دعوتهم الدينية ،فعلى الرغم من ظروف الجهل والمرض فإن إيمان الناس العميق بالإسلام كدين فطري يتناسب مع حياتهم لم يتزعزع ، فأخذ الناس من هذه الإرساليات ما يناسبهم وتركوا ما أحسوا بأنه لا يناسبهم ،لهذا نجحت الإرساليات من الناحية الإنسانية وفشلت من النواحي الدينية .

انتهت زيارة هاريسون الثانية لمنطقة الإمارات بعد أن استطاع مدّ الجسور بين الإرسالية الأمريكية وبين منطقة الإمارات ، وكانت لهاريسون علاقات جيدة مع شيوخ المنطقة وأعيان البلاد ،فعلى حدّ تعبيره كان عدد كبير من مستشاري الشيخ سعيد بن مكتوم من بين مرضاه ، وقد اعترف هاريسون قائلا : «لقد تعلمت دروسًا جيدة من خلال تعاملي مع هؤلاء الأعيان....لقد تعلمت أن لا تكون لنا أي صلة مع النفوذ الغربي إذا ما أردنا البقاء في هذه المنطقة»[٤٥].

كانت تقارير المبشرين تعتبر ضرباً من ضروب الأدب لأنها تحتوي على وصف دقيق للحياة الاجتماعية للإمارات في مطلع القرن العشرين ، وقد أنشأ

المبشرون دكاكين لبيع كتبهم الدينية ، ولكن لجذب السكان كانت هذه الدكاكين كثيرًا ما تجلب المجلات العربية وخاصة (الهلال) وبعض القصص العلمية والكتب الأدبية الأخرى[٤٦].

في عام ١٩٢٨ زار هاريسون منطقة الإمارات مرة أخرى بدعوة هذه المرة من الشيخ سعيد المكتوم الذي دعاه لمعالجة زوجته ، ولكن عند وصوله لم يسمح له بالدخول إلى دبي لأن المجلس الاستشاري للشيخ رفض دخوله لتخوفه من النفوذ الأجنبي الكامن وراء نشاط المبشرين ،[٤٧] ولكن هاريسون استطاع زيارة عجمان ومعالجة العديد من المرضى ، وتعتبر هذه الزيارة آخر زيارة لهاريسون إلى منطقة الإمارات ، وفي تقاريره إلى مجلس الإرسالية الأمريكية دعا هاريسون إلى عدم قطع العلاقة التي كونها مع عرب الإمارات ، وأكد هاريسون في تقاريره أن حاجة الإمارات الفعلية لا تكمن في حاجتها الماسة للعناية البدنية ، ولكن للعناية الروحية ، ويمكن القول بأنه «ليس هناك في الخليج بأكمله مدن تصلي مخلصة كما تفعل دبي ومسقط» ،[٤٨] وأكد هاريسون بحماس أنه قريبًا سيأتي اليوم «الذي يسافر فيه عرب الشارقة في سفنهم الشراعية ليس للبحث عن اللؤلؤ ولكن للبحث عن الناس ، فالقديس بطرس سيجد الراحة مع هؤلاء الناس» .[٤٩]

لم تنته علاقة الإرسالية العربية بمنطقة الإمارات في الثلاثينيات من القرن العشرين ، إذ ظلت الصلة وثيقة بين الإرسالية ومنطقة الإمارات ، ففي نهاية عام ١٩٢٩ زار الدكتور «لويس دام Louis Dame» المنطقة بعد تلقيه عدة دعوات من قبل شيوخ المنطقة على حدّ قوله ، حيث قام خلال تلك الزيارة بتقديم العلاج للمواطنين ، وظلّ «دام» شهرًا في عجمان وآخر في دبي التي وصفها بأنها «من أكبر مدن الساحل وأهمها ، وهي ميناء رئيسي للسفن التجارية»[٥٠] ، ووصف «دام» السكان بأنهم على جانب كبير من كرم الضيافة ، وأنهم حريصون على حماية استقلالهم وخاصة من «الرجل الأبيض» ، وقد حدد «دام» أهداف الحركة

التبشيرية في الجزيرة العربية بأنها تهدف إلى التبشير في ثلاثة مناطق رئيسية وهي عمان الداخل ، ساحل القراصنة (الإمارات) وإقليم الأحساء ،[٥١] وقد أضاف «دام» أن المبشرين الأوائل صادفوا القليل من العقبات خلال زيارتهم لعمان ، فعدد كبير منهم قد وصل إلى الجبل الأخضر والبريمي ،كما وصف «دام» منطقة الإمارات بأنها ساحل تمتد على طوله المدن المزدحمة والتي تبعد عن بعضها البعض حوالي ١٠ أميال ، وكل مدينة تحتفظ باستقلالها ،كما اشتهر أهل الإمارات بكرم الضيافة ، ولديهم صدر رحب لتلقي الإنجيل .

كانت زيارة «دام» هي آخر زيارة مهمة يقوم بها طبيب أمريكي لمنطقة الإمارات قبل الحرب العالمية الثانية ، فقد بدأت بريطانيا خلال عقد الثلاثينيات في تضييق الخناق على زيارات الأجانب للمنطقة خوفًا من أن يكونوا عملاء لشركات البترول الأمريكية العاملة في منطقة الأحساء بالسعودية والبحرين ،لذا رفضت إصدار تصريحات دخول لمنطقة الإمارات لجميع الأوربيين ، ومن بينهم المبشرون الأمريكيون ، وفيما عدا زيارة قصيرة لميناء دبي قامت بها المبشرة اليزابيث كالفيري ، ابنة المبشر ايدون كالفيري العامل في محطة الكويت ،لم تكن هناك أي زيارة مهمة للمبشرين الأمريكيين لمنطقة الإمارات حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية .

لقد تميّزت هذه المرحلة بالتركيز على التطبيب كوسيلة مباشرة للتبشير ، وكان كل المبشرين الذين زاروا المنطقة من الأطباء المؤهلين الذين استغلوا الخدمة العلاجية كوسيلة ناجحة للتغلغل إلى منطقة الإمارات ، وعلى الرغم من انشغال هؤلاء المبشرين طوال الأسبوع باستقبال المرضى ،فإنهم كانوا قد خصّصوا يوم الأحد لإقامة القداس الديني ودعوة الأهالي لحضوره ، وعلى حد قولهم فقد كانت هذه الفرصة هي فرصتهم الكبرى ،[٥٢] وكان القداس يقام في الأماكن العامة وعلى مقربة من تجمع الناس ، وذلك لإتاحة الفرصة لأكبر عدد ممكن من الأهالي لحضوره ، وعلى الرغم من تكثيف الوجود التبشيري الأمريكي خلال هذه المرحلة

فإن السجلات الكنسية الأمريكية لا تورد ذكراً لمعتنقين جدد ، ولا تشير إلى أي تغير جذري في موقف الأهالي تجاه مهمة هذه الإرساليات ، فلقد رَحَّب الأهالي بكل الخدمات الطبية التي قدّمتها هذه الإرساليات ولكنهم رفضوا الجوانب الدينية ، وهكذا فإنه على الرغم من كثافة التواجد التبشيري الأمريكي ، فقد فشل في أن يترك أثراً دينيًا ملحوظاً في المنطقة .

المرحلة الثالثة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٩

تميّزت هذه المرحلة التي تخلّلتها عواصف الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) بانحسار المدّ التبشيري المسيحي الأمريكي واقتصاره على تقديم الخدمة الطبية . فالاهتمام المتزايد الذي أبدته بريطانيا تجاه تحسين الخدمات العامة وخاصة الطبية في منطقة الإمارات ، أدى إلى تطور الخدمات الصحية وإيجاد بدائل للرعاية الصحية التي كانت الإرساليات التبشيرية الأمريكية تقدّمها ، ومن ناحية أخرى أدت الحرب العالمية الثانية إلى تقليص الخدمات الطبية التي يقدّمها المبشرون نظرًا لظروف الحرب الاقتصادية والسياسية ، ولكن ما إن وضعت الحرب أوزارها حتى بدأت الإرساليات في مواصلة نشاطها من جديد ، ولكن الحرب كانت قد ألقت بظلالها على منطقة الخليج عامة والإمارات خاصة ، فقد تغيّرت السياسة البريطانية تجاه مشيخات الخليج ، فعوضًا عن الموقف السلبي تجاه القضايا الداخلية في مشيخات الخليج ، حاولت بريطانيا التقرّب من هذه المشيخات عن طريق الاهتمام بالقضايا الداخلية ، وتوفير نوع من الخدمات العامة التي تهم السكان ، ولاحظت بريطانيا الإقبال الشديد الذي كانت تلقاه الخدمات الطبية للإرساليات الأمريكية فأرادت منافستها في هذا المجال حتى لا تعطي للنفوذ الأمريكي فرصة للتغلغل في مشيخات الخليج في فترة كانت أهمية هذه المشيخات البترولية قد بدأت بالظهور ، ومن ناحية أخرى أدى انفتاح الإمارات بعد الحرب على العالم الخارجي إلى تعرّف السكان على الخدمات العامة خاصة في مجال الرعاية الطبية ، والتي تقدمها الدول المجاورة وخاصة البحرين والعراق والهند ، فأصبحت مستشفيات هذه الدول مقصداً

لأهل الإمارات يقصدونها للاستشفاء ، وشجعت هذه الأوضاع بريطانيا على إدخال نوع من الخدمة الطبية الحديثة للإمارات وعلى دعوة أطباء من الهند لزيارة المنطقة وتقديم خدماتهم للأهالي ، وهكذا شهد عام ١٩٤٩ بدء الخدمة الطبية الحديثة في الإمارات ، ففي هذه السنة وافقت بريطانيا على إنشاء مستشفى المكتوم ، والذي أنشىء بتبرعات بريطانية وبمساعدة من الشيخ سعيد بن مكتوم حاكم دبي ، وقد فتح المستشفى أبوابه ليس لأهالي دبي فقط بل لجميع أهالي الإمارات ، وقد عين طبيب مقيم هو الدكتور د . جي . ماكولي D. G. Mccaully من الخدمة الطبية الهندية ليرأس هذا المستشفى ويبدأ العمل فيه ،[٥٣] وجاء إنشاء هذا المستشفى ليبدأ صفحة جديدة في مجال الرعاية الصحية الحديثة في الإمارات ، ورغم أن هذا المستشفى أنشىء في الواقع لينافس الخدمات الصحية الأمريكية فإن إنشاءه وضع اللبنة الأولى في مجال الرعاية الطبية الحديثة في منطقة الإمارات ، وبذلك فقدت الإرساليات الأمريكية حجتها في أن وجودها مرتبط بتقديم الرعاية الطبية الحديثة للأهالي .

فتح هذا المستشفى الباب على مصراعيه لقبول الكثير من المساعدات الطبية ، فبعد أن تيقنت الإرساليات الأمريكية من فشل مخططها الرامي إلى التبشير عن طريق التطبيب ، اقتصر دورها في الخمسينيات على تقديم العلاج الصحي فقط ، أملاً في أن يكون ذلك بمثابة باب تدلف منه إلى قلوب الأهالي ، ففي عام ١٩٥٢ أنشىء المستشفى الأمريكي في الشارقة أو ما يعرف باسم مستشفى «ساره هوسمان» Sarah Hosman ، فقد عملت هذه الطبيبة (التي كانت في السابق عضوًا فعالاً في الإرسالية العربية) في هذا المستشفى لسنوات عديدة حتى إن المستشفى قد أخذ شهرته من اسمها ، وتوالت الهبات الطبية على الإمارات ، فأنشأ مجلس تطوير الساحل المتصالح عيادة في رأس الخيمة التي ظلّت تقدّم خدماتها للأهالي حتى سنوات ما بعد الاستقلال ، كما أنشأت الإرسالية الإنجيلكية المتحدة مستشفى حديثاً في العين عام ١٩٦٢ هو مستشفى

الواحة ، وفي الستينيات عكف مجلس التطوير على إنشاء العيادات في المناطق النائية مثل الذيد ، أبو موسى ، شعم ، الدقداقة وجزيرة الزعاب وأذن ومصفوت ، وهكذا تطورت الرعاية الصحية لتشمل كافة أنحاء الإمارات .

الخاتمة

استهدف التبشير الأجنبي خاصة والأمريكي عامة نشر الثقافة والنفوذ الغربيين في منطقة الإمارات ، واستغلت الخدمة الطبية كوسيلة سهلة تنفذ من خلالها إلى عقول الناس وقلوبهم ، فقد كانت الإرساليات تهدف من وراء إرسال طبيب متخصص ومؤهل ، وعلى دراية بالعادات والتقاليد المحلية وملم باللغة العربية لمخاطبة الأهالي وتقديم رسالة المسيح لهم في صورة مبسطة ، وكانت الخطة تهدف إلى تنصير المرضى كخطوة أولى ، والتركيز فيما بعد على أهالى المرضى تمهيدًا للهدف الأكبر ألا وهو إنشاء كنيسة عربية تخدم أغراضهم الدينية .

استغل المبشرون أوضاع المنطقة الصحية والتعليمية ، ومبدأ التسامح الديني الموجود في منطقة الإمارات والذي أعطى لغير المسلمين حرية ممارسة شعائرهم الدينية دون تدخل ، فحاولوا نشر المسيحية وتنصير المنطقة ، وعليه كانت الخدمات الطبية الوسيلة التي ولجوا من خلالها إلى المنطقة ، والمفتاح السحري الذي فتح أمامهم كل الأبواب الموصدة ، فقد كانت منطقة الإمارات محرومة من الرعاية الصحية الحديثة ، فرحبت كل الترحيب بخدمات هؤلاء المبشرين ، ولكن على الرغم من انتشار الأمية والمرض بين الأهالي فإن الحس الديني لديهم كان راسخاً، وعلى الرغم من إدراكهم لبراعة هؤلاء الغرباء في حقل الطب ، لم يتقبلوا دعوتهم الدينية ، فقد كان الدين الإسلامي هو الدين الذي يناسب فطرتهم والمحور الذي ارتكزت عليه حياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، أما تقارير المبشرين التي أشادت بتزايد نسبة بيع الكتب الدينية للأهالي فإنها كانت تعبر عن المبشر الذي كان يقوم في كثير من الأحيان بدفع مبالغ مالية من جيبه الخاص للإرسالية الأمريكية بقصد خلق الانطباع لدى رؤسائه بمدى النجاح الذي يلقاه في مهامه التبشيرية .[٥٤]

ومثلما كانت الرعاية الطبية هي السبب في تغلغل المبشرين في منطقة الإمارات ، فإنها كانت أيضًا السبب في بداية انحسار نفوذهم عن المنطقة ، وفي نهاية الأربعينيات ، حين قامت بريطانيا ، بمساعدة وطنية محلية ، بإنشاء أول مستشفى حديث في الإمارات فإن ذلك كان إيذاناً بفقدان الخدمات الأمريكية بريقها وذرائعها التي اعتمدت عليها في تبرير وجودها في المنطقة لمدة تزيد عن نصف قرن ، وهكذا حلّت الخدمات الطبية المحلية بالتدريج محل خدمات الإرساليات الأجنبية ، وعلى الرغم من استمرارها في منطقة الإمارات فإنها لم تعد تحتل المقام الأول الذي كانت تحتله في السابق ، ولكن وجود تلك الإرساليات اقتصر على تقديم خدماتها الطبية لأتباعها من الوافدين .

على الرغم من أن التبشير كان في الواقع صراعًا بين طرفين : طرف يعتمد على التقدم التكنولوجي والعلم الحديث ويرغب في نشر ثقافته وفكره بشتى الوسائل ، وطرف آخر يعاني من الجهل والأمية والمرض نتيجة السيطرة الاستعمارية ولكنه كان يعمل جاهدًا في سبيل الحفاظ على وحدته وتماسكه ومبادئه الدينية والوطنية ،فإن كفة الطرف الأخير كانت هي الراجحة في نهاية المطاف ، فقد انتصرت المبادئ الراسخة الأصيلة والوازع الديني العميق في وجه المد التبشيري الغربي .

الهوامش والمراجع

(١) - S. Zwemer and J. Cantine, **The Golden Milestone: Reminiscences of Pioneer Days Fifty Years Ago in Arabia**, New York: 1938,p. 143.

(٢) - Ibid., pp. 143-4.

(٣) ويندل فيلبس : **رحلة إلى عمان** ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان : ١٩٨٦ ، ص٢٥ .

(٤) ظلت الحركة تحت رعاية الكنيسة حتى عام ١٩٠٠ عندما انضمت كل الكنائس الاسكتلندية تحت رعاية كنيسة واحدة هي الكنيسة الاسكتلندية المتحدة الحرة United Free Church of Scottland والتي تغير اسمها مرة أخرى عام ١٩٢٩ إلى Church of Scottland أو الكنيسة الاسكتلندية .

(٥) - William Harold Storm, **Whither Arabia?** A Survey of Missionary Opportunity, London: 1938,p. 63.

(٦) - Barny F.J, and Alfred DeWitt Mason, **History of the Arabian Mission**, New York: 1926, p. 58.

(٧) محمد الرميحي : الخليج ليس نفطاً ، شركة كاظمة للنشر ، الكويت : ١٩٨٣ ، ص١٩ .

(٨) الخليج ليس نفطاً ،ص٢٢ .

(٩) - Zwemer, and Cantine, **The Golden Milestone**, p. 112.

(١٠) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج ، القسم التاريخي ، جـ١ ، قطر : ص٦١٢ .

(١١) مقابلة محلية أجرتها الباحثة مع الدكتورة مريان كنيدي ، العين : ٥ مايو ١٩٩٣ .

(١٢) - Barny and Mason, **History of the Arabian Mission**, pp. 75 - 77.

(١٣) - Paul Harrison, "The Arabs of Oman.", **The Muslim World**, vol. XXIV, July, 1934, No. 3, p. 269.

(١٤) - The Arabian Mission Quarterly Letters from the Field, No. 34, April to June, 1900.

(١٥) - Ibid.

(١٦) - Ibid.

(١٧) - Ibid.

(١٨) - Ibid.

(١٩) - The Arabian Mission Quarterly Letters from the Field, No. 38, April to June, 1901.

(٢٠) - Ibid.

(٢١) - Ibid.

(٢٢) - The Arabian Mission Quarterly Letters from the Field, No. 42, April to June, 1902.

(٢٣) Ibid.

(٢٤) - Ibid.

(٢٥) **- Neglected Arabia**, The Arabian Mission News, No. 49, Oct., to Dec., 1906.

(٢٦) The Arabian Mission, Missionary Letters and News, No. 67, Oct., to Dec., 1908.

(٢٧) - Ibid.

(٢٨) - Ibid.

(٢٩) - Ibid.

(٣٠) - Barny and Mason, **History of the Arabian Mission**, p. 172.

(٣١) - Paul Harrison, "ATour to the Pirate Coast," **Neglected Arabia**, No. 109, April - June, 1919.

(٣٢) - Ibid.

(٣٣) - Ibid.

(٣٤) - Ibid.

(٣٥) - Ibid.

(٣٦) - Paul Harrison, **Doctor in Arabia**, London, 1941, p. 41.

(٣٧) - Ibid.

(٣٨) - Paul Harrison, "A Tour to the Pirate Coast," **Neglected Arabia**, No. 109, April - June, 1919.

(٣٩) - Ibid.

(٤٠) - Ibid.

(٤١) - Paul Harrison, **Doctor in Arabia**, p. 41.

(٤٢) - Ibid.

(٤٣) - Ibid.

(٤٤) - **Neglected Arabia**, No. 120, Jan, to March, 1922, P. 13.

(٤٥) - Ibid, No. 147, April to June, 1928, p. 8.

(٤٦) - Ibid, No. 172, July - Sept., 1935, p.9.

(٤٧) - P. Harrison, "Economic and Social Conditions in Arabia," **The Muslim World**, vol. XIV, Jan., No. I, 1924, p. 164.

(٤٨) - Paul Harrison, "The Arabs of Oman," **The Muslim World**, Vol. XXIV, July 1934, No. 3, p. 268.

(٤٩) - Ibid.

(٥٠) - Louis P. Dame, "Objectives in Arabia" **The Muslim World**, Vol. XX, No. 11, 1930, p. 180.

(٥١) - Ibid.

(٥٢) - Cerrit D. Van Peursem, "Methods of Evangelism in Arabia, The Muslim World, Vol. XI, Jan., 1921, No. 1, p. 267.

(٥٣) - K.G. Fenelon, The United Arab Emirates, Longman, London: 1973, p. 103.

(٥٤) - Gerrit Van Peursem, p. 269.

❋ ❋ ❋

ملحق رقم (١)

المبشرون الذين عملوا في منطقة الإمارات في القرن العشرين

اسم المبشر	الفترة الزمنية	المكان	مهنته الأصلية	الجنسية
صامويل زويمر	١٩٠٠ - ١٩٠٢	أبوظبي - دبي الشارقة	أسقف	أمريكي
جيمس مويرديك	١٩٠١ - ١٩٠٢	الشارقة - دبي الحمرية - عجمان	أسقف	أمريكي
	١٩٠٢ - ١٩٠٦	دبي - الشارقة	طبيب	أمريكي
شارون توماس	١٩٠٨	دبي	طبيب	أمريكي
ستانلي ميلري بول هاريسون	١٩١٩ - ١٩٢٨	أبو ظبي - دبي الشارقة - عجمان أم القيوين - الحمرية	طبيب طبيب	أمريكي
لويس دام	١٩٢٩ - ١٩٣٠	دبي - عجمان	طبيب	أمريكي
سارة هوسمان	١٩٥٢ - ١٩٥٩	الشارقة - دبي	طبيبة	أمريكية